قراءة جديــدة في معلـــقة عمرو بن كلـــــثوم

د. أحمد محمد مشرف الحراحشة *

تاريخ تقديم البحث:٢٣ /٧ /٢٠١٧م. تاريخ قبول البحث: ٢٠١٧/١٠/١١م.

ملخص

تتغيا هذه الدراسة قسمة أبيات معلقة عمرو بن كلثوم الشهيرة على مناسبتيها المختلفتين: زمانًا ومُخاطَبِينَ، وأسبابًا، ودواعي النظم، والمتعلقتين؛ الأولى بحادثة التقاضي بين بكر وتغلب، والثانية بحادثة الصحن، وسأعمل على فرز أبياتها معتمدًا صفة المخاطب من حيث ضمير المفرد في مخاطبة الملك عمرو بن هند، وضمير الجمع في مخاطبة بكر، وحُزَم المعاني الواردة المتعلقة بالمُخاطَبَينِ، وقوَّة العاطفة والنفس الشعري ويقظة الشعور، لكل قصيدة على حدة، مستمنحًا كلَّ المناهج في تفسير افتتاحيتيهما، وأغناها المنهج التأويلي العقلي (الهيرمينيوطيقي).

الكلمات الدالة: قصيدة التقاضي، قصيدة الصحن، بكر وتغلب، مقام النَّص، المنهج التأويلي العقلي.

* قسم اللغة العربية، جامعة آل البيت، الأردن.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة. الكرك، الأردن.

New Vision in Mu'allaqa of Amr Ibn Kulthum

Dr. Ahmad mohammad mishrif AL-Harahsheh

Abstract

This study aims at structuralizing The Mu'allaqa of Amr Ibn Kulthum based on its two contexts, which differ in terms of the setting, the addressees, the reasons and the motives behind composing. The first context is represented in the litigation between the tribes of Bakir and Taglib; the second, on the other hand, has to do with the case of the dish. The study divides the verses based on the addresses: the singular addressee, in addressing King Amr Ibn Hind, and the plural addresses, in addressing the tribe of Bakir, in addition to the bulk of meaning related to the addressees, the strong passion, the poetic stamina and vivid emotions of each single poem. The study relies on all related methodology in interpreting the openings of each context, most importantly, the reason of hermeneutical methodology.

Keywords: Litigation Poem, Dish Poem, Bakir and Taglib, Text Value, the reason-hermeneutical methodology

قصيدة التقاضي:

قالها عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير بن جشم بن بكر بن حُبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب[١]، ويكنى أبا الأسود[٢]، شاعر فارس سيد من سادات العرب وفتاكها،[٣] وأُمّه ليلى بنت المهلهل وعمُّها كليب، سيدة نساء العرب [٤]، يوم التقاضي بين بكر وتغلب أمام الملك عمرو بن هند ملك الحيرة :

قِفي قَبَـــلَ التَفَرُّقِ يا ظَعـينا نُخَبِّـــــركِ اليَقـينـــــا وَتُخبِريـــنا[١]

قِفي نَســـــأَلْكِ هَل أَحدَثتِ وصلاً لِوَشـــــكِ البَيـــــنِ أَم خُنتِ الأَمِينَـــا[٢]

بِيَومِ كَريـــهَةٍ ضَـــــــــربًا وَطَعـنًا أَقَـــرَّ بِـــهِ مَوالـيكِ العُـــــيونا[٣]

وَإِنّ غَـــــدًا وإنّ اليومَ رَهْـــنٌ وَبَعْـــدَ غَـــدٍ بِـمَـــــــا لَا تَعْلَمِينَا[٤]

(١) الآمدي، الحسن بن بشر بن يحيى، المؤتلف والمختلف: دار الكتب العلمية- بيروت، ١٩٨٠ ص٢٠، والأنباري، محمد بن القاسم، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة ،ص٣٦٩، والتبريزي، يحيى بن علي بن محمد، شرح القصائد العشر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، ص٣٧٩، و عسيلان، عبد الله بن عبد الرحيم ، معجم شعراء الحماسة، دار المريخ- الرياض، ١٩٨٢م، ص٨٨.

(٢) الجراح، محمد بن داود، من اسمه عمرو من الشعراء في الجاهلية والإسلام:، تحقيق د. محسن غياض عجيل و د. مصطفى عبد اللطيف، دار الشؤون الثقافية، بغداد،١٩٩٩، ص٥١.

(٣) لفتكه بعمرو بن هند ملك الحيرة في الحادثة المشهورة، وقد وردت في معظم كتب مصادر الأدب.

(٤) الجراح، محمد بن داود، من اسمه عمرو من الشعراء: ص٥٢.

(١)أراد يا ظعينة فرخَّم، والظعينة: المرأة في الهودج، وقد كنَّى بها عن قبيلة بكر التي شُرِدتْ في البلاد من جراء غارات المهلهل لمدة أربعين سنة في حرب البسوس التي وقعت بين بكر وتغلب إثر قتل جساس البكري الملك كليب التغلبي، فقضوا مدة الحرب وهم ظعائن على ظهور الإبل سائرين في البلاد، إذا أمسوا في موضع لا يصبحون فيه، وإذا أصبحوا في أرض لا يمسون بها .

(٢) الوشك: السرعة، والوشيك: السريع. الأمين: الملك كليب، وقصد بالوصل تشاركهما في حرب مذحج يوم خزاز، وقد توج هذا التقارب بينهما بزواج كليب من جليلة بنت مرة البكرية بعد الحرب التي انتصروا فيها على أهل اليمن.

(٣) الكريهة: من أسماء الحرب، والجمع الكرائه، سميت لأن النفوس تكرهها، نخبرك بيوم حرب كثر فيه الضرب والطعن، فأقر بنو أعمامك عيونهم في ذلك اليوم، أي فازوا ببغيتهم وظفروا بمناهم من قهر الأعداء. وقصد بها حرب ربيعة ومضر مع مذحج حيث اشتركت فيها القبيلتان جنبا إلى جنب مع قبائل عرب الشمال، أقر به مواليك العيونا: فرحوا بهذا النصر وقرت عيونهما: أي برد دمعها وزال الخوف وهدأت ونامت.

(٤) الأيام رهن علم الغد القادم، وهي حبلى بالحوادث.

تُرِيكَ إِذَا دَخَـلْتَ عَلَى خَـــلَاءٍ وَقَـــدْ أَمِنَتْ عُـيُونَ الْكَاشِحِينَـــا[١]
ذِراعَيْ عَيـطَلٍ أَدمـاءَ بِكرٍ هِـجَانِ اللَّـونِ لَـــم تَقرَأ جَنينا[٢]
وَثَدْيًا مِثْلَ حُقّ العَاجِ رَخْصـــًا حَصانًا مِنْ أَكُـفِ اللّامِسِينَا[٣]
وَمَتْنَي لَـدْنَـــةٍ سَمَـقَتْ وَطالَت رَوادِفُـها تَـنـــوءُ بِمـــا وَليـنا[٤]
فَمَـــا وَجَدَت كَوَجـدي أُمُّ سَقبٍ أَضَـلَّـــتهُ فَرَجَّـعَتِ الْحَنيـنـــا[٥]
وَلا شَمْطـــــاءُ لَم يَترُك شَقاهـا لَـها مِن تِســـعَةٍ إِلَّا جَنيـنا[٦]
تَذَكَّرْتُ الصِّـبا وَاشتَقتُ لَمّـــا رَأَيتُ حُمولَها أُصُـــــلًا حُديـنا[٧]
فَأَعرَضَتِ اليَمامَـــةُ وَاشمَـــخَرَّت كَأَسـيافٍ بِأَيـــــــدي مُصلِتـينا[٨]
إِلَيْكُـــمْ يَا بَنِـــي بَكْرٍ إِلَيْـــكُمْ أَلَـمّا تَعْرِفُوا مِنَّـــا اليـقِـينَا[٩]
ألـمَّا تعرفوا مـنَّا ومنكمْ كَـتائِبَ يَطـعَنَّ وَيَرتَمـينا[١٠]

(١) الكاشح: المضمر العداوة في كشحه والكشح ما بين الخاصرة والذراع، وخصت العرب الكشح بالعداوة لأنه موضع الكبد، والعداوة عندهم تكون في الكبد، وقيل: بل سمي العدوّ كاشحًا؛ لأنه يكشح عن عدوه أي يعرض عنه فيوليه كشحه، يقال: كشح عنه يكشح كشحًا.

(٢) العيطل: الطويلة العنق من النوق، الأدماء: البيضاء منها، البِكْر: الناقة التي حملت بطنًا واحدًا، تربعت الأجارع والمتونا. تربعت: رعت ربيعًا. الأجارع جمع الأجرع وهو قطعة مرتفعة من الرمل، المتون: جمع متن وهو الظهر من الأرض. الهجان: الأبيض الخالص البياض، لم تقرأ جنينًا أي لم تضم في رحمها ولدًا.

(٣) رخصًا: لينا. حصانًا: عفيفة.

(٤) اللدن: اللين، والجمع لُدن، أي ومتني قامة لدْنَة. السُّموق: الطول، الرادفتان: فرعا الأليتين، والجمع الروادف. النَّوء: النهوض في تثاقل. الوَلْيُ: القرب.

(٥) الوجد: الحزن، الترجيع: ترديد الصوت، الحنين: صوت المتوجع. يقول: حزني على الملك كليب قتيل جساس البكري أعظم من حزن ناقة الجرمي رفيق البسوس التي قتل كليب سقبها، وكان سببا لقتله.

(٦) الشمط: بياض الشعر. الجنين: المستور في القبر هنا. يقول حزني على كليب أكبر من حزن العجوز الشمطاء أم جساس التي قتل لها تسعة أولاد في حرب البسوس، ما منهم أحد إلاَّ مُجن في قبره.

(٧) الحمول: الرواحل التي تحمل أثقال القوم عند الرحيل، حدينا: حدى بها الحادي للمسير.

(٨) أعرضت: ظهرت، اشمخرت: ارتفعت. أصلت السيف: سللته.

(٩) يقول: ألم تعلموا من نجدتنا وبأسنا اليقين؟ أي قد علمتم ذلك لنا فلا تتعرضوا لنا.

(١٠) يقول: ألم تعرفوا كتائبنا وكتائبكم يوم الشدائد كيف تطعن وترتمي في لهيب المعركة.

عَلَيْنَا البَيْضُ وَاليَلَـــبُ اليَمَانِي وَأَسْـــــيَافٌ يَقُـمْنَ وَيَنْحَنِـينَا[١]

عَلَيْنَـــا كُـلُّ سَـابِغَةٍ دِلاصٍ تَرَى فَوقَ النّطاقِ لَـهَا غُضُونَا[٢]

إِذَا وُضِعَتْ عَنِ الأَبْطَالِ يومـــــًا رَأَيْتُ لَـهَا جُلُـودَ القَومِ جُونَا[٣]

كَأَنّ غُضُونَهُنَّ مُتُونُ غُـدْرٍ تُصَفّقُهَا الـرّياحُ إِذَا جَرَيـنَا[٤]

وَتَحْمِلُنَا غَـــــدَاةَ الـرَّوْعِ جُرْدٌ عُـرِفْنَ لـنَا نَقـائِذَ وَافْتُلِـينا[٥]

وَرَدْنَ دَوارِعًا وَخَرَجْنَ شُعْثًا كَأَمْــثَالِ الرّصــائِعِ قَدْ بَلينا[٦]

وَرِثْناهُنّ عَنْ آبَـــــاءِ صِـدْقٍ وَنُورِثُهــا إِذَا مُتـنا بَنــينا[٧]

عَلَى آثَارِنا بِيــضٌ حِـسَانٌ نُحـاذِرُ أَنْ تُقَسَّـمَ أَوْ تَهـوُنَا[٨]

أَخَـذْنَ عَلَـــى بُـعُولَتِهِنَّ عهدًا إِذَا لَاقَـــوا كَـــتَائِبَ مُعْلِمِينَا[٩]

يَقُتْنَ جِـــيادَنَا وَيَقُلْنَ لَسْتُمْ بُـعُولَتَنَا إِذَا لَمْ تَـــمْنَعُونَا[١٠]

ظَعَائِنُ مِنْ بَنِي جُشَمِ بنِ بَكْرٍ خَلَـطْنَ بِمِيسَمٍ حَسَبًا وَدِينا[١١]

---

(١) اليلب: نسيجة من سيور من الجلد تُلبس تحت خوذة الحرب وهي البيض: غطاء الرأس، يقم السيف: يعتدل، ينحني: يعوج من كثرة القطع.

(٢) السابغة: الدرع الواسعة التامة. الدِّلاص: البراقة. الغضون: جمع غَضَن وهو فضول الدرع، تفضل عن الرجل فيشمرها ويثنيها لليونها وسهولتها.

(٣) الْجَون: الأسود والجون الأبيض، والجمع الجون.

(٤) غضون الدرع: نسيجه، الغُدْر: مخفّف غُدُر وهو جمع غدير. تصفقه: تضربه.

(٥) الرَّوع: الفزع ويريد به الحرب هنا. الجرد: التي رق شعر جسدها وقصر، والواحد أجرد والواحدة جرداء. النقائذ: المخلصات من أيدي الأعداء، الفلو والافتلاء: الفطام.

(٦) رجل دارع: عليه درع، ودروع الخيل تجافيفها التي تُجلل بها لتحميها من الجراح، الرصائع: جمع الرصيعة وهي معقد العنان وهو فوق الأنف و تحت الغرة.

(٧) يقول: قوتنا مستمرة نورثها لأبنائنا، وهي الخيل وما عليها.

(٨) خلفنا في الحروب نساء بيض حسان نحاذر عليها أن يسبيها الأعداء فتقسمها وتهينها.

(٩) أخذن عهدا: قد عاهدن أزواجهن إذا قاتلوا كتائب من الأعداء قد أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها في الحروب أن يثبتوا في حومة القتال ولا يفروا، والبعول: الأزواج.

(١٠) القوت: الإطعام بقدر الحاجة.

(١١) ظعائن: نساء، جشم بن بكر: أحد جدود تغلب، الميسم: الحسن وهو من الوسام والوسامة وهما الحسن والجمال، الحسب: ما يحسب من مكارم الإنسان ومكارم أسلافه.

وَمَا مَنَعَ الظَّعَائِنَ مِثْلُ ضَرْبٍ تَـــرَى مِنْهُ السَّواعِـدَ كالقُلِينَا[١]
وَنَحْنُ إِذَا عِمَادُ الْحَيِّ خَـرَّتْ على الأَحْفَاضِ نَمْنَعُ مَنْ يَلِينَا[٢]
نَعُمُّ أُنَاسَـــنَا وَنَعِفُّ عَنْـهُمْ وَنَحْـــمِلُ عَنْـهُمُ مـــا حَمَّلُونا[٣]
ألاَ ابلغْ بني الطَّمَّاح عـنَّا ودعمـــــيًّا فكيف وجـدتمونا[٤]
نَزَلْتُم مَنْزِلَ الأَضْـيَافِ مِنَّـــــا فأعْجَلْنا القِـرَى أَنْ تَشْتِمُونَا[٥]
قَرَيناكُـم فَعَجـلْـــنا قـــراكُم قُبَيْلَ الصُّـبحِ مِرداةً طَحُونا[٦]
نُطَاعِنُ مَا تَرَاخَى النَّاسُ عَنَّا وَنَضْرِبُ بالسُّـــيُوفِ إِذَا غُشينا[٧]
بِسُمْرٍ مِنْ قَنَا الْخَـطّيّ لُدْنٍ ذَوَابِـــــــلَ أَوْ بِبِيـضٍ يَخْتَليـنا[٨]
نَشُـقُّ بِهـــا رُءوسَ القَومِ شَقًّا وَنَخْتَلِـــــبُ الرِّقَـابَ فَتَخْتَلِـينا[٩]
كَأَنّ جـمَاجِمَ الأَبْطالِ فِيهَا وُسُوقٌ بالأمـــاعِزِ يَرْتَمِينَا[١٠]
نَجُذُّ رُءوسَـهُمْ فِي غَـيْرِ بِرٍّ فَمَا يَدْرُونَ مَـــاذَا يَتَّقُونا[١١]
وَقَدْ عَلِمَ القَـبائِلُ مِنْ مَـعَدٍّ إِذَا قُبَبٌ بِأَبْطَـحِهَا بُنيـــنَا[١٢]
بِأَنَّا الْمُطْمِـعُونَ إِذَا قَـدَرْنَا وَأَنَّا الْمُهْلِكُـونَ إِذَا ابْتُلِيـنَا[١٣]

(١) تطير السواعد تتقطع سواعد الأعداء، القلينا: القلَّة التي ترمى بعيدا بيد الأقوياء.
(٢) الحفض: متاع البيت.
(٣) نعمُّ: ننشر خيرنا العميم على عشائرنا جميعها، لا نستثني أحداً، ونَحْمِل مغارمهم عنهم، ولا نثقل عليهم بشيء.
(٤) أسألوا حيي الطَّمَّاح ودعميًّا من إياد عن قوتنا إنْ كنتم تجهلوا ذلك، ويروى أن بني الطماح من وائل ودعمي من إياد وقد كانت لهم أيام طويلة معهما.
(٥) يسخر من بكر، ويقول قد عجلنا قراكم وهو القتل: ما يحمد تعجيل قرى الأضياف.
(٦) المرداة: الصخرة التي يكسر بها الصخور، والمرداة أيضًا الصخرة التي يرمى بها، فاستعار المرداة للحرب، الطَّحون: فعول من الطحن. مرداة طحونًا أي حربًا أهلكتهم أشد إهلاك.
(٧) نطاعن بالرماح إذا ابتعد الأعداء عنا، وإن اقتربوا منا نضربهم بالسيوف.
(٨) اللَّدْن: اللين، والجمع لُدن وهي الرماح، ذوابل: مرنة؛ لاهي جافة فتتكسر، ولا رطبة فتلتوي، والبيض: السيوف، يختلينا، يقطعن الرؤوس ويخلينها عن الأجساد.
(٩) الاختلاب: قطع الشيء بالمخلب وهو المنجل الذي لا أسنان له. الاختلاء: إزالة الرؤوس عن الأجساد.
(١٠) الوسوق: جمع وسق وهو حمل بعير. الأماعز: جمع الأمعز وهو المكان الذي تكثر حجارته.
(١١) الجذ: القطع، في غير بر: في غير رحمة.
(١٢) البطاح: الأرض الواسعة.
(١٣) ابتلينا: ابتلينا بالحرب.

وَأَنَّا الـمَانِـعُونَ لـــمَا أَرَدْنَا وَأَنَّا الــنَّازِلُونَ بِحَيْثُ شِينَا[١]

وَأَنَّا التَّارِكُونَ إِذَا سَخِــطْنَا وَأَنَّا الآخِــذُونَ إِذَا رَضِيـنَا[٢]

وَنَشْرَبُ إِنْ وَرَدْنَا الْمَاءَ صَفْوًا وَيَشْرَبُ غَيـرُنَا كَـدِرًا وَطِينَا

مشكلة الدراسة:

إنَّ قراءة معلقة عمرو بن كلثوم المشهورة، قراءة فاحصة متأنية تفصح عن مفارقات واضحة في عاطفتها، وفي حالة الشاعر النفسيَّة؛ حيث يجد القارئ أبياتًا يهاجم فيها عمرو بن كلثوم الملك عمرو بن هند، وكان هو القاضي بين تغلب وبكر، فكيف يستعدي خطيب تغلب عمرو بن كلثوم القاضي وهو بحاجة إلى استمالته إلى جانبهم!، ويهاجم قبيلة بكر تارة أُخرى يصب جام غضبه عليها متنقصًا منها ومعددًا معايبها، وتارة ثالثة يثني على شجاعتها في أجزاء تالية من القصيدة، فكان خطابه موجهًا لضمير مفرد مرة وضمير جمعي مرة أُخرى.

وقد ذكر النقاد القدامى على رأسهم أبو الفرج الأصفهاني مناسبتين للقصيدة، متعلقتين بحادثين مختلفين؛ توحدت الأولى منهما وهي قصيدة التقاضي مع حادثة قول الحارث بن حلزة لمعلقته الشهيرة يوم الصلح بين بكر وتغلب[٣]، والثانية متعلقة بحادثة الطُرف التي أدت إلى مقتل الملك عمرو بن هند[٤].

وقد أشار غير واحدٍ من المحدثين إلى أنّ معلقة عمرو بن كلثوم لم تُنظم في حادثة واحدة؛ منهم: لويس شيخو في شعراء النصرانية[٥] وجرجي زيدان[٦]؛ لذا جاءت مسوغات هذه الدراسة من دمج النقاد والرواة قصيدتي عمرو بن كلثوم اللتين قيلتا في مناسبتين مختلفتين في قصيدة واحدة ، وخَلْطِ أبياتهما بعضهما ببعض لعلل ثلاث؛ أولاهما: نَظْمهُما على بحر واحد وعلى قافية واحدة، وثانيتهما: تقارب مستوى يقظة عاطفة الشاعر في القصيدتين على الرغم من اختلافهما زمانًا

(١) المانعون: الحامون الديار، النازلون: القاطنون أي مكان نشاء لقدرتنا ومنعتنا.

(٢) سخطنا: غضبنا عليه.

(٣) الأصفهاني، أبو الفرج، الأغـاني، دار إحياء التراث الإسلامي، ط٢، بيروت، ١٩٩٧، ج١١، ص٢٩ إحالة ٤٣/١١.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٦ إحالة ٥٣/١١

(٥) شيخو، لويس، شعراء النصرانية، دار المشرق، بيروت، القسم الأول، ص١٩٩.

(٦) زيدان، جرجي: تاريخ آداب اللغة العربية، دار الهلال، ١٩٥٧، ١/ ص١٢٢.

وموضوعًا وفئة مستهدفة، وثالثتهما: سيطرة النَفَس الشعري للشاعر نفسه تجاه موضوعيهما، وهو الفخر والتهديد والوعيد؛ حيث هدد في القصيدة الأولى زمنيًا وهي قصيدة التقاضي قبيلة بكر مفتخرًا عليها، مذكرًا بأيامهم في حرب البسوس وغيرها، ومتنقصًا منها؛ وقد حمَّلهم وزر مقتل كليب بسقب من الإبل، وافتخر في القصيدة الثانية وهي قصيدته بعد قتله عمرو بن هند ملك الحيرة على بساطه وبين رجال حاشيته وجنده؛ فخرًا لم يوازه فخر في الجاهلية؛ وذلك لفرحته بنصره على الملك في تلك الحادثة.

الفرضيات:

إنَّ لكل قصيدة منهما عاطفة واحدة هيَّجها أمرٌ جللٌ حَزَبَ الشَّاعر، ورمض نفسه؛ فاستدر منه القول، ومعلوم أنَّ كلَّ موضوع إنَّما ينبعث عن ضرب من الشعور، مباين لما ينبعث عنه الموضوع الآخر[١] . فعاطفة الشاعر تجاه قبيلة بكر الوائلية عاطفة حقد على مقتل كليب مشوبة بحزن على أيام الوصال بينهما، حيث كانت لهما حياة سوية مشتركة في الديار، وتواصل في المصالح، وتواشج في الأرحام، ومصاهرة على مستوى كبير، حيث صاهر مرة بن شيبان البكري كليبا؛ وزوَّجه ابنته جليلة، ثم أعقب هذا اللقاء الحميم قتل جساس المفاجئ وغير المتوقع صهره الملك كليب، الذي أحدث بعد ذلك قطيعة وفاجعة قضت على كل أواصر التواصل بينهما، وأعقبت حزنًا و دماءً وأشلاءً من حرب أشغلت القبيلتين زمانًا، فالقصيدة يجب أن تعالج كل هذه الحسائك والحسرات الكامنة في نفس الشاعر، وحانت لها فرصة للظهور في مناسبة اتهام تغلب بكرًا بأنَّها كانت وراء مقتل سبعين رجلًا من تغلب، حيث منعت عنهم الماء فماتوا عطشًا في الصحراء.

دواعي قول القصيدة:

يروي ابن الأنباري[٢] والخطيب التبريزي[٣] قصة إنشاد عمرو بن كلثوم معلقته، فيقولان: "جاء ناس من بني تغلب إلى بني بكر بن وائل يستسقونهم، فطردتهم بكر، للحقد الذي كان بينهم، فرجعوا فمات منهم سبعون رجلًا عطشًا، ثُمَّ إن بني تغلب اجتمعوا لحرب بكر بن وائل، واستعدَّت لهم بكر.

(١) العاكوب، علي عيسى: **العاطفة والإبداع الشعري**، دار الفكر المعاصر ودار الفكر، ط١ بيروت ودمشق، ٢٠٠٢م ص٣٤٨.

(٢) الأنباري، محمد بن القاسم، **شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات**، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ص٣٦٩.

(٣) التبريزي، يحيى بن علي بن محمد، **شرح القصائد العشر**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح وأولادة، القاهرة، ص٣٧٩.

حتى إذا التقوا كره كلٌّ صاحبه، وخافوا أن تعود الحرب بينهم كما كانت، فدعا بعضهم بعضًا إلى الصلح، فتحاكموا في ذلك إلى عمرو بن هند. فقال عمرو: ما كنت لأحكم بينكم حتى تأتوني بسبعين رجلًا من بكر بن وائل فأجعلهم في وثاق عندي، فإن كان الحق لبني تغلب دفعتهم إليهم، وإن لم يكن لهم حق خليت سبيلهم، ففعلوا، وتواعدوا ليوم بعينه يجتمعون فيه. فقال الملك لجلسائه: من ترون تأتي به تغلب لمقامها هذا؟ فقالوا: شاعرهم وسيدهم عمرو بن كلثوم. قال: فبكر بن وائل؟ فاختلفوا عليه، وذكروا غير واحد من أشراف بكر بن وائل. قال: كلا، والله، لا تفرج بكر بن وائل إلا عن الشيخ الأصم، يعثر في ريطته، فيمنعه الكرم من أن يرفعها قائده، فيضعها على عاتقه. فلما أصبحوا، جاءت تغلب يقودها عمرو بن كلثوم، حتى جلس إلى الملك. تقدَّم عمرو بن كلثوم لإلقاء كلمة تغلب بين يدي الملك بحضور ملأ كبير من الطرفين ووجوه العرب فافتتح قصيدته مخاطباً ظعينة راحلة طالبًا منها الوقوف وإخباره الخبر اليقين بما حدث في يوم من أيامهم، قرَّت بها عيون مواليها بما رأوه من شجاعة قومه، وبعد أن ذكَّرها بهذا اليوم الذي فرح به الجميع وكانوا في حالة من التوافق والوحدة؛ يسألها مستهجناً ذلك الموقف حيث أعقبه حادثة صرمت حبل الوّد بينهما، ومطلعها:

قِفِـــــي قبـــلَ التفرُّق يـــا ظعينا نُخَـــبِّركِ اليقـــــــينَ وتُخْبرينا

التحليل الفني:

لكلِّ قصيدةٍ قصدٌ وغايةٌ أرادها الشَّاعر، شأنها شأن أيِّ نشاط إنساني، وأرقى النشاطات الإنسانيَّة، النشاط اللغوي، "والإنسان يريد بالكلام معنىً واحدًا من المعاني التي يتضمنها ذلك الكلام فإذا فُسِّرَ بغير مقصود المتكلِّم من تلك المعاني، فإنَّما فَسَّرَ المُفسِّر بعض ما تعطيه قوَّة اللفظ، وإنْ كان لم يُصِبْ مقصود المتكلِّم" (١).

يرى رولان بارت

(BART 1992) أنَّ النَّص هو السطح الظاهري للنتاج الأدبي، وعليه يجب رصد عوالم التخييل اللغوي جيدًا، وأنْ يتم رصد الكلمة بوصفها وحدة فريدة وجوهرًا فردًا(٢)، حيث لا يمكن فهم مقاصد النُّصوص الأدبيَّة ذات القيمة العالية من القراءة الأُولى، ولا يغنى المعنى الأولي الذي تعطيه القراءة

(١) ابن عربي، أبو بكر محيي الدين بن محمد الطائي (٥٠٥ هـ): **الفتوحات المكية**، دار صادر، بيروت، ج١، ص١٣٥-١٣٦.

(٢) بارت ، رولان: **لذَّة النَّص**، ترجمة: د. منذر عياش، دار لوسي، باريس، ط ١٩٩٢، ص٦٥.

الأولى كثيرًا؛ لأنَّ القراءة الأولى ليس بإمكانها استنبات المقاصد، "والاعتبار بالمقاصد والمعاني في الأقوال والأفعال، فإنَّ الألفاظ إذا اختلفت ومعناها واحد كان حكمها واحدًا، فإذا اتفقت الألفاظ واختلفت المعاني كان حكمها مختلفًا، وكذلك الأعمال [١] ، لذلك فإنَّ العناية، كلَّ العناية بفهم الخطاب، فهو المقصود[٢] وعليه المدار، وتكون استجابة المتلقي حسب مستويات الإدراك، فإن لم يُفهم القصدُ لن تكون هناك استجابة صحيحة من المتلقي، فستكون الاستجابة ضعيفة أو مخالفة لما يريده الباثُّ وذلك حسب تفسير المتلقي للغة، وبمقدار فهمه للألفاظ، فالألفاظ والعبارات في الشِّعر، لها أبعاد غير متوقعة؛ لأنَّ القصيدة من حيث هي عمل فني ليست إلاَّ تشكيلاً خاصًا بمجموعة من ألفاظ اللغة [٣]؛ لذلك على من يتعاور تفسير النُّصوص الشعريَّة أنْ لا يقف عند المعنى اللغوي المباشر إنْ كان هذا المعنى مخالفًا لأحوال المقام وسياق الموقف.

مقام النَّص يتمثل في دفاع عمرو بن كلثوم عن قبيلته تغلب أمام القاضي الملك عمرو بن هند ملك الحيرة في قضية اتهام تغلب قبيلة بكر بأنَّها كانت وراء موت سبعين رجلًا من تغلب ماتوا عطشًا لمنعها الماء عنهم، وكان خطيب بكر النعمان بن الهرم؛ وقد بدأ عمرو بن كلثوم بإنشاد قصيدته مخاطبًا قبيلة بكر بالظعينة، فمن هي الظعينة المقصودة؟ فالبحث جار عنها، فلا بد للمُنقِّب في طبقات المعاني من الوصول إليها؛ لأنَّ الشاعر لا يمكنه مغادرة سياق الموقف في كلِّ لوحاته.

لماذا نادى عمرو بن كلثوم قبيلة بكر بهذا اللقب؟ إنَّ أي تفسير يذهب به صاحبه غير هذا المذهب في مناداة عمرو بن كلثوم غير قبيلة بكر؛ مثل محبوبة راحلة هو كسر صارخ لأفق التوقع في ضوء مقام النَّص المأزوم الذي يحيج المتكلم فيه إلى التركيز الشديد المتمحور حول هدف المتكلم وما يصبو إلى تحقيقه من قصيدته، فهو أمام قاض وخصم لدود في قضية أرواح سبعين رجلًا من تغلب؛ فلا يمكن للنفس البشرية أن تبتعد عن مشغلتها في هذا الظرف وهذا الموقف النفسي، وتقع تحت تأثير عاطفتين متناقضتين في اللحظة نفسها؛ أي عاطفة غزل وعاطفة غضب وتهديد ووعيد.

من البدهي أنَّ كلَّ اسم يرد في أيِّ حديث يجب أنْ لا يرد زورًا، ولا بد من أنْ تكون له علاقة ما بهذا الحديث، وليس كما قال ابن رشيق القيرواني أنَّ الشعراء كانوا يأتون بأسماء النساء زورًا في

(١) الجوزية، ابن قيم: **أعلام الموقعين عن رب العالمين**، المطبعة المنيرية، القاهرة، ج٣، ص٩٥.

(٢) الشاطبي، أبو اسحاق: **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق: محمد عبد الله دراز، ط المكتبة التجارية، القاهرة، ج٢، ص٨٤.

(٣) إسماعيل، عز الدين: **الشعر العربي المعاصر وقضاياه وظواهره الفنية والمعنوية**، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٩٨١، ص٥٠.

قصائدهم لمجرد أنها حَلَتْ في أفواههم[١]، وسأستنطق هذه الرموز الحافلة بالدِّلالات القيِّمة لاستجلاء وجه المعنى المستتر تحت غلالة شفافة من الألفاظ .

لو كان عمرو بن كلثوم يخاطب فتاة يحبها لتيمَّن في بقائها ووصالها، ولمَّا قرر الفرقة في البيت الأول بقوله: "قفي قبل التفرق يا ظعينا"، وكان على العاشق إنَّ يحزن ويتحسر على فراق معشوقته، ويهمس لها بكلمات الوداع المشوقة بالحب والحنين كقول عمر بن أبي ربيعة:

ألمــم بزينب قبل أن يظعن الركب وقل لهـــــا: إنْ تملَّينا ما ملَّك القلب

لا بكلام جاف يحاسبها ويقسو عليها حتى لو كان ذنبها كالجبال، فالعاشق غفَّار لذنوب المحبوبة، محافظ على وصالها ودوام ودها ومحبتها، ولكنَّه يخاطب قبيلة بكر قاتلة الملك كليب، سيد تغلب، وعمِّ أُمِّه ليلى بنت المهلهل، وعدوهم اللدود في حرب البسوس الطويلة، وهذا هو مقام النَّص ومناسبته، فله عندهم إحنٌ وثارات وجراحات لم تندمل، وحسائك لا تُبرؤها مرُّ الأعصر وتعاقب الأيام. وقد حانت فرصة للأخذ بجزء من الثأر الدامي عن طريق الكلمة، وللكلمة عند العرب وقع أشد من وقع السنان على الأجساد.

خاطب عمرو بن كلثوم بكرًا في افتتاحية القصيدة موجهًا لهم الخطاب مكنِّيها بالظعينة؛ ألم تكن قبيلة بكر ظعائن سائرة طيلة أيام حرب البسوس التي استمرت أربعين عامًا!، عاشوا متنقلين في البلاد، يقضون أوقاتهم على ظهور الرَّكائب، لم يستقر لهم قرار في مكان في ليلة من ليالي الحرب الزبون خوفًا من بطش المهلهل وغاراته التي لا تهدأ في ليل أو نهار، ولا تنقطع في حرٍ أو قر، إنْ أمسوا في مكان لا يصبحون فيه، وإنْ أصبحوا لا يمسون فيه، فكانت حياتهم في تنقل مستمر، ظعائن سائرة في البلاد، أكلت النُّقلة أعمارهم لعقود عديدة، طيلة حرب البسوس بينهما؛ لذلك حُقَّ له أن يطلق عليهم هذا الاسم "ظعينة".

قِفي قَبلَ التَفَــرُّقِ يا ظَعينـــــا نُخَبِّركِ اليَقينـــا وَتُخبِرينـــــــــا

[١] القيرواني، ابن رشيق (٤٥٦ هـ): **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٩٨١م، ج٢، ص١٢١ .

أعلن عمرو بن كلثوم في بداية كلامه الفرقة والبين؛ لأنَّه لا يرى فرصة للعودة إلى زمن الإخاء والإلفة والوفاق كما كانوا قبل قتل كليب؛ لعظم فاجعة مقتل كليب على يد جساس البكري بسبب سقب من الإبل، كيف يقتل ملك بسقب!؟

ويريد أن يخبرها ويختبرها، وأن يستفسر عن بعض ما جرى قبل الحرب وأثنائها من علائق وأحداث ليؤكد لهم وللناس موقفهم من الحرب التي فرضت عليهم، ويبرئهم من اللوم والملاحاة التي طالتهم من أحداث حرب البسوس الطويلة.

قِفي نَسأَلكِ هَل أَحدَثتِ وصلاً لِوَشـــــكِ البَينِ أَم خُنتِ الأَمِينَا
بيَـــــومِ كَريهَةٍ ضَرباً وَطَعناً أَقَرَّ بِـــــهِ مَوالـــيكِ العُـــيونا

كان استخباره الأول حول إضمار قبيلة بكر وتربصها بكليب للإيقاع به وقتله، ويرى هذا الوصال بين بكر وتغلب بيوم كريهة: أي نخبرك اليقين بيوم كريهة، أي بيوم وقعةٍ كريهةٍ أي مكروهة، والكريهة: اسم لشدة الناس في الحرب، وقد حدده الشاعر بيوم واحد معروف، ولم يكن يومًا من أيام حرب البسوس كما يقول التبريزي[1]، وهل أقرت عيون القبيلتين بكر وتغلب بيومٍ من أيام حرب البسوس! .

وأزعم ان هذا اليوم الذي يفتخر به عمرو بن كلثوم التغلبي وفرح به البكريون وأُقرّت العيون بالظفر هو يوم خزاز المشهور، وكان به النصر لبكر وتغلب معًا ومن معهم من القبائل العدنانية على أهل اليمن، وكان كليب قائد معركة خزاز، توج على بكر وتغلب وربيعة كلها بعد انتصارهم في هذه المعركة، وبهذا النصر انتصفت مَعَدٌّ من اليمن، وانتهت سيطرة عرب الجنوب وهيمنتهم على عرب الشمال، ولم تزل لهم المنعة حتى جاء الإسلام [2].

وبعد تتويج كليب على مَعَدٍّ كلِّها تُوجتْ أواصر القربى ووحدة الهدف والمصير بين بكر وتغلب بالمصاهرة بينهما، التي تمثلت بزواج كليب من جليلة بنت مرة بن شيبان البكري، ولم تطل أيام الوصال بينهما؛ لوشك البين بخيانة الأمين كليب وقتله بحجة واهية غير منطقية؛ لا يقبلها ذو عقل ولا يلتبس تهافتها على ذي لب، من يصدق ملك يُقتلُ من أجل سقب من الإبل!

(١) التبريزي، يحيى بن علي بن محمد، **شرح القصائد العشر**، ص٢٨٥.

(٢) إبراهيم، أبو الفضل، والبجاوي، علي محمد: **أيام العرب في الجاهلية**، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٥م ص٩٠.

تُرِيكَ إِذَا دَخَلْتَ عَلَى خَـلَاءٍ وَقَدْ أَمِنَتْ عُيُونَ الْكَاشِحِينَا

ذِراعَيْ عَيـطَلٍ أَدمــاءَ بِكرٍ هِـجَانِ اللَّونِ لَم تَقرَأ جَنينا

وَثَدْيًا مِثْلَ حُقّ العَاجِ رَخْصًا حَصانًا مِنْ أكُفِ اللّامِسِينَا

وَمَتْنَي لَـدْنَةٍ سَمَقَتْ وَطالَت رَوادِفُها تَـنوءُ بِما وَليــنــا

يتذكَّر عمرو بن كلثوم في هذه اللوحة الأيام الخوالي ويتحسر على طيب الحياة وسعادتها أيام الوصال والأُلفة والمحبة بين بكر وتغلب؛ واصفًا بكرًا بأجمل ما يكون عليه جمال فتاة طويلة، بيضاء، رخصة، لينة، شابة لم تحمل بعد، ولم تلد، ممتلئة الجسم، حصان، مصونة، رزان ما تزنُّ بريبة.

إنَّ من غير المقبول ما ذهب إليه بعض الشراح بأنَّه يصف محبوبة له بهذا الوصف الجسدي الحسي المثير أمام الرجال، كيف يعرض رجل عربي صفات محبوبته الجسدية بهذا التفصيل في محافل الرجال؟، فاين الغيرة عند العرب؟ وأين أهل المروءة والشهامة والحشمة !، فإذا قبلنا ما جاء به الشرح القديم فإننا نحكم على عمرو بن كلثوم بالدياثة، وعلينا أن نسقط عنه كل صفات الرجولة والشجاعة التي عُرف بها، وكيف نقبل قوله مفتخرًا بنسائهم بعد ذلك:

عَلَى آثَارِنا بِيــضٌ حِــسَانٌ نُحـاذِرُ أَنْ تُقَسَّـمَ أَوْ تَهـوُنَا

ظَعَائِنُ مِنْ بَنِي جُشَمِ بنِ بَكْرٍ خَلَـطْنَ بِمـيسَمٍ حَسبًا وَدِينا

بعد أنْ ذكَّر بكرًا بأيام الوصال والوفاق والأُلفة وأضفى عليها صفات الجمال الأنثوي الباهر، يقع في حيرة وحسرة وحزن على خاله كليب الذي قتلته بكر بسقب من الأبل؛ ويقول: إنَّ حزنه على كليب أعظم من حزن ناقة البسوس على سقبها الذي رماه كليب بسهم فقتله، وقُتل بهذا السقب، وأشدُّ من حزن العجوز الشمطاء أم جساس على أولادها التسعة الذين قتلوا في الحرب، وما من أحد منهم إلَّا جنينًا جنَّته الأرض تحت الثرى.

فَمَا وَجَدَت كَوَجـدي أُمُّ سَقبٍ أَضَـلَّتهُ فَرَجَّــعَتِ الْحَنيــنا

وَلا شَمْطاءُ لَم يَتْرُك شَقاهــا لَـها مِن تِسعَـةٍ إِلَّا جَنيــنا

فكيف استطاع عمرو بن كلثوم أنْ يغيِّر عاطفته بسرعة لو كان يتغزل بمحبوبة في اللوحة السابقة إلى عاطفة حزن ووجد على خاله وسيد قومه كليب، ومن المعروف أنَّ النفس البشريَّة لا تستطيع تغيير عاطفتها إذا كانت قوية بسرعة، فلا يستطيع الإنسان أن يفرح ويحزن في آن واحد ، ورسولهما الضحك أو البكاء، والعقل السوي لا يستطيع أن يفعلهما سوية في وقت واحد إلاَّ إذا كان هناك خلل

في البنية التركيبيَّة للعقل، ويرى فرويد(Freud1961) أنَّه "لا بد من علاقة بين فكرتين تلي إحداهما الأخرى سواء أكانت تلك العلاقة ظاهرة أم غير ظاهرة، فالعقل لا يستطيع أن يغير الموضوع حينما يشاء"(١).

تَذَكَّرْتُ الصِّبا وَاشتَقتُ لَمّا رَأَيتُ حُمولَها أُصُلًا حُدينا
فَأَعرَضَتِ اليَمامَةُ وَاِشمَخَرَّت كَأَسيافٍ بِأَيدي مُصلِتينا

عمرو بن كلثوم من نتاجات حرب البسوس، والمكتوي وأمّه وقومه تغلب بنارها، وحامل ثقافتها، رضع الحقد على بكر مع حليب أُمِّه، وتربى على صهيل الخيل وحمحمتها، وناغى صريك سنابكها وصليل السيوف والرماح التي تكسرت فيها النصال على النصال في حرب البسوس التي كان مُسعرُها وبَطَلَها جدُّه المهلهل بن ربيعة التغلبي، يتذكَّر حادثة مقتل كليب على يد جساس البكري عندما دنا الإمساء، وزمَّتْ حمولُ بكر أُصلاً وجلت عن الديار، وأعلنت الحرب على بكر واشمخرت اليمامة وشُهرت وعُرفت دارًا للحرب والانتقام والموت والدماء والأشلاء والإحن والضغائن والأحقاد بين دور العرب بعد ذلك على مدى أربعة عقود.

إليكم يا بني بكر إليكم ألما تَعْرِفوا منَّا اليَقِينا
ألمَّا تعرفوا منَّا ومنكمْ كَتائِبَ يَطّعِنَّ وَيَرتَمينا
عَلَيْنَا البَيْضُ وَاليَلَبُ اليَمَانِي وَأَسْيَاف يَقُمْنَ وَيَنْحَنِينَا
عَلَيْنَا كُلُّ سَابِغَةٍ دِلاصٍ تَرَى فَوقَ النّطاقِ لَهَا غُضُونَا
إِذَا وُضِعَتْ عَنِ الأَبْطَالِ يومًا رَأَيْتُ لَهَا جُلُودَ القَومِ جُونَا
كَأَنّ غُضُونَهُنَّ مُتُونُ غُدْرٍ تُصَفّقُهَا الرّياحُ إِذَا جَرَيْنَا

اشتعلت الحرب وشرع عمرو بتذكير بكر بالأخبار الصحيحة التي تجاهلوا، وأدى بهم تجاهلها ونسيانها إلى الإقدام فيما أقدموا عليه أخيرًا من التسبب في هلاك سبعين رجلا من تغلب، ألم تتعلموا من أخطائكم السابقة! ولم تتعظوا من دروس الحرب بيننا! أما زلتم تستهينون بقوتنا وعدتنا عندما نلبس الدروع اليمانية الضافية التي يشبه سرد حلقاتها وجه غدير صفقته الرياح، حتى سفَّعت جلود

(١) الحوفي، أحمد: **الغزل في العصر الجاهلي**، دار القلم، بيروت، ١٩٦١، ص٢٩٨ ، نقلا عن: برت، سرل: **كيف يعمل العقل**، ترجمة الأستاذين محمد خلف الله وفؤاد جلال، ج١، ص٤٥ .

أبطالنا سوادًا من صدأ الحديد لطول تدرعها، وكثرة الأيام بيننا. ألم تتذكروا خيولنا الجُرد الأصيلة يوم الروع:

وَتَحْمِلُنا غَـدَاةَ الـرَّوع جُـردٌ عُرِفْنَ لَـــنا نَقائذَ وافتُلـــينا
وَرَدْنَ دَوارِعًا وَخَرَجْنَ شُعْثًا كَأَمْـــثَالِ الرّصـــائِعِ قَدْ بَلينا
وَرِثْناهُنّ عَنْ آبَـــاءِ صِـدْقٍ وَنُورِثُهـــا إِذَا مُتـنَا بَنـــينا

أنسيتم يا بني بكر خيولنا المنتقاة المختارة التي كانت تحتنا في أيام البسوس، المكتسبة من خيرة خيول عدونا، وهي خيل شجعانهم وقادتهم بعد قتلهم وهزيمتهم، ومن خيولنا التي فُطمت عندنا، ودربها أبطالُنا وساسُوها، يَرِدْنَ الحرب كاملة العدَّة بسروجها وتجافيفها، ورثناها من آبائنا الصادقين الذين تعلمون شجاعتهم علم اليقين، فخيولهم ونتاجها معنا الآن وهي مُعدَة جاهزة للحرب، ويستمر هذا الأمر بنا إلى قابل الأيام، سنورِّث هذه الخيل الكريمة لأبنائنا إذا مُتنا، ولن ينقطع بنا الزمان، فسنبقى أحلاس الخيل ومسعري الحرب إلى آخر الزمان.

عندما ذكر الأبناء، ذكر النساء الأصائل البيض الخاليات من الدنس اللواتي يلدنهم، وينمينهم على الشجاعة والبطولة والكرم، وكأني به يقول: نسائنا كخيلنا حسبًا وصدقًا وعفَة ودينًا، ولا يخذلْننا يوم الروع بالتشاغل عنَّا، وإنَّما يملأنَّا حماسة وشجاعة وإقدامًا لحمايتهنَّ وصونهنَّ، أخذن على بعولتهن عهدًا بحمايتهن ومنعتهنَّ؛ لأنهنَّ لا يقبلنَ بديلًا غيرنا من الرجال لشجاعتنا وإقدامنا:

عَلَى آثَارِنا بِيـضٌ حِـسَانٌ نُحـاذِرُ أَنْ تُقَسَّـمَ أَوْ تَهـُونَا
أَخَـذْنَ عَلَى بُـعُولَتِهِنَّ عهدًا إِذَا لَاقَوا كَـــتَائِبَ مُعْلِمِـينَا
يَقُتْنَ جِـــيادَنَا وَيَقُلْنَ لَسْتُمْ بُـعُولَتَنَا إِذَا لَمْ تَـــمْنَعُونَا
ظَعَائِنُ مِنْ بَنِي جُشَمِ بنِ بَكْرٍ خَلَـطْنَ بِمِـيسَمٍ حَسَبًا وَدِينًا
وَمَا مَنَعَ الظَّعَائِنَ مِثْلُ ضَرْبٍ تَرَى مِنْهُ السَّواعِـدَ كالقُلِينَا
نُطَاعِنُ مَا تَرَاخَى النَّاسُ عَنَّا وَنَضْرِبُ بالسُّيُوفِ إِذَا غُشينا

يُذكِّر بكر بوقعات حرب البسوس وأفعالهم الجريئة فيها، وكيف كانت لهم السيطرة التامة على مجريات الحرب، وأن قبيلة بكر كانت بين أيديهم لا تفلت من قبضتهم كالضيف بين يدي مضيفه، لا حول ولا قوة له وكأنَّه أسيره، وقد أكرمناكم بالقتل طحنًا بحجر الرحى الثقيلة مبكرين قبيل الصبح، بأيدينا الرماح السمر اللينة والسيوف التي تشق الرؤوس وتختلي الرقاب، حتى نثرنا رؤوس أبطالكم وشجعانكم وأشلاءهم بالأرض المعزاء في العراء، تخالهم حملانًا مُفترَسةً لهوان قوتكم وضعفكم عزائمكم.

نَزَلْتُم مَنْزِلَ الأَضْـيَافِ مِنَّـا ... فأعْجَلْنا القِـرَى أَنْ تَشْتِمُونَـا
قَرَيناكُـم فَعَجّـلنا قِـراكُـم ... قُبَيْلَ الصُّـبحِ مِـرداةً طَحُونا
بِسُـمْرٍ مِنْ قَنَا الْخَـطّيّ لُدْنٍ ... ذَوَابِلَ أَوْ بِبِيـضٍ يَخْتَليـنا
نَشُـقُّ بِهـا رُءوسَ القَومِ شَقًّا ... وَنَخْتَلِـبُ الرِّقَـابَ فَتَخْتَلِـينا
كَأَنّ جِـمَاجِمَ الأَبْطَـالِ فِيهَا ... وُسُـوقٌ بالأمَـاعِزِ يَرْتَمِينَا

وأخير يؤكد قدرة قبيلته تغلب مستشهدًا بما تعلمه قبائل مَعَدٍّ كُلُّها وتعترف من الفضل لهم في كل سَوْحٍ من سِوَحِ الحياة العربية ومناحيها المختلفة؛ فهم الأجواد المطعمون المُحْيُونَ الناس في سني الجدب والجوع، وهم مهلكونهم حين البلاء والحرب، وهم المانعون الحامون الناس يوم الخوف والريبة، وهم الذين يتخيرون أماكن سكناهم ولا أحد يفرض عليهم أين يقيمون بيوتهم نزولا على أحكام الآخرين، فكلُّ البلاد مباحة لهم لقوتهم ومنعتهم، ولا يجرؤ أحد أن يرد الماء قبلهم، فهم أول الورَّادين الماء، عندما يكون صفوًا نميرًا رقراقًا وذلك لمنعتهم وقوتهم وعزتهم، فلا يستطيع أحد أن يتقدمهم أو يحول دون ما يريدون، فهم سادة مقدمون، ثم يرد الآخرون بعدهم ويكون الماء قد تكدر وتغير لونه لاستباحتهم المورد بالطريقة التي يريدونها، لا يمنعهم أحد عن فعل ذلك، والماء عند العرب نظرًا لشحه، له مواضعات وحصص وأحيان متفق عليها، ومن حاز النصيب الأوفر مَلَكَ وجوه الحياة والراحة والهناء، ولكن تغلب لا تتقيد بشيء من هذه المواضعات لمنعتهم وعزتهم:

وَقَدْ عَلِـمَ القَـبائِلُ مِنْ مَـعَدٍّ ... إِذَا قُبَبٌ بِأَبْطَـحِهَا بُنِيـنَا
بِأَنَّـا الْمُطْـعِمونَ إِذَا قَـدَرْنَا ... وَأَنَّا الْمُهْلِكُـونَ إِذَا ابْتُلِينَا
وَأَنَّا الـمَانِـعُونَ لِـمَا أَرَدْنَـا ... وَأَنَّـا الـنَّازِلُونَ بِحَيْثُ شِينَا
وأَنَّـا التَّارِكُـونَ إِذَا سَخِـطْنَا ... وَأَنَّـا الآخِـذُونَ إِذَا رَضِينَا
وَنَشْـرَبُ إِنْ وَرَدْنَا الْمَاءَ صَفْوًا ... وَيَشْـرَبُ غَيْرُنَا كَـدِرًا وَطِينَا

تمَّت قصيدة التقاضي وهي القصيدة الأولى زمنيًا، وجاءت قصيدة الحارث ابن حلزة في هذه الحادثة رداً مباشراً عليها، ومطلعها:

آذَنَتنـــا بِبَينِهـــا أَســـماءُ رُبَّ ثـــاوٍ يُمَلُّ مِنهُ الثَواءُ

فالحارث يرد مباشرة على إعلان عمرو بن كلثوم التفرّق بين القبيلتين ويقول له الحارث: أخبرتنا يا عمرو بالفرقة ونحن مللناكم مثلما يملُّ المكان قاطنه.

قصيدة الصحن:

أَلَا هُبّـــي بصحـنِكِ فاصبحينا وَلَا تُبْقِي خُمُورَ الأَنْدَرِيـــنا(١)

مُشَعْشَـــعَةً كَأَنّ الْحُصَّ فِيـهَا إِذَا مَا الْمَاءُ خَالَطَهَا سَخِـينَا(٢)

تَجُورُ بِـذِي اللبَـــانَةِ عَنْ هَوَاهُ إِذَا مَا ذَاقَـــها حَتَّى يَلِيـنَا(٣)

تَرَى اللَّحِزَ الشَّحِيـــحَ إِذَا أُمِرَّتْ عَلَيهِ لِمَـالِـهِ فِيـهَا مُهِينَا(٤)

وَإِنّـــا سَـــوْفَ تُدْرِكُنا الْمَـــنَايَا مُـقَدَّرَةً لَـنَـــــا ومُـقَدَّرِيـــنا(٥)

أَبَـــا هِنْدٍ فَلَا تَعْـجَـلْ عَلَـيْنَا وأَنْـظِـــرْنَا نُخَـــبِّرْكَ الْيَقِيـنَا(٦)

بِأَنَّـــا نُـــوردُ الرَّايَاتِ بِيـــضًا وَنُصْدِرُهُنّ حُـمْرًا قَـــدْ رَوِيـنَا(٧)

(١) الصحن: هو الطبق المعروف، إناء قاعدته واسعة قليل العمق: وقالت العرب صحن الدار وصحن المسجد أي الأفنية وساحات المداخل والاستقبال، ويومئ عمرو بن كلثوم بذلك إلى موضوع الطبق الذي كان سببا لقتل الملك عمرو بن هند في حادثة الطرف المشهورة بين أم الملك عمرو بن هند وأم عمرو بن كلثوم ليلى بنت المهلهل، واحتفل عمرو بن كلثوم بعد قتله الملك بشرب الخمر، وقال هذه القصيدة احتفاء بهذا النصر، الأندرينا: قرية في الشام اشتهرت قديما بصناعة الخمر لوفرة الكرمة فيها.

(٢) شعشعت الشراب: مزجته بالماء. الحص: الورس نبت له نوّار أحمر يشبه الزعفران. ومنهم من جعل سخينًا صفة ومعناه الحار، من سخن يسخُن سخونة، ومنهم من جعله فعلًا من سخي يسخى سخاءً، وفيه ثلاث لغات: إحداهن ما ذكرنا، والثانية سَخُوَ يسخو، والثالثة سخا يسخو سخاوة.

(٣) تجور: تميل صاحب الحاجة عن حاجته وهواه، حتى يلينا: يصبح لطيف المعشر، لين المعاملة.

(٤) اللحز: الضيق الصدر. الشحيح: البخيل الحريص، مهينا: مبذرا وسخيا.

(٥) المنايا: تقدير الموت.

(٦) أبا هند: الملك عمرو بن هند.

(٧) يقول ندخل الحرب ورياتنا بيضاء خالية من الدنس كناية عن الشرف والوفاء، ونصدرها حمراء مرتوية من دماء الأعداء.

وأيَّـــامٍ لَـنَا غُـــرٍّ طِـــوَالٍ عَصَيْنَا الْمَـلْكَ فِيهَا أَنْ نَدِيـنَا[١]
وَسَيِّدِ مَعْـشَـــرٍ قَـــدْ تَوَّجُـوه بِتَاجِ الْمُلْكِ يَحْمِي الْمُحْجَرِينا[٢]
تَرَكْنَا الْخَـــيلَ عَاكِـفَةً عَلَيهِ مُقَلَّدَةً أَعِنّـــتَهَـــا صُـفُونَا[٣]
وَأَنْزَلْنَا البُيُوتَ بِذِي طُلُـوحٍ إلى الشَّامَاتِ نَنْفِي الْمُوعِدِينَا[٤]
وَقَد هَرَّت كِـلابُ الْحَيِّ مِنّا وَشَذَّبنا قَـــتَادَةَ مَن يَلينا[٥]
مَتى نَنقُل إِلى قَـــومٍ رَحَانا يَكُونوا في اللِّـقاءِ لَها طَحينا[٦]
يَكُونُ ثِقَالُهَا شَرْقِيَّ نَـــجْدٍ وَلُهْوَتُهَا قُضَـــاعَةَ أَجْمَعِينَا[٧]
وإنَّ الضِّغْنَ بَعْدَ الضِّغْنِ يَبْدُو عَلَيْكَ وَيُخْـرِجُ الدَّاءَ الدَّفِينَا[٨]
وَرِثْنَا الْمَجْدَ قَدْ عَلِمَتْ مَـعَدٌّ نُـطَاعِـنُ دُونَهُ حَتّى يَبِيـنَا[٩]
أَلَا لَا يَعْـلَمُ الأَقْـــوَامُ أَنَّا تَضَعْضَـعْنَا وَأَنَّا قَـدْ وَنِيـنا[١٠]
أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَـدٌ عَلَيْـنَا فَنَـجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا[١١]
بِأَيّ مَشِيئَةٍ عَمْرَو بن هِنْدٍ نَكُونُ لِقَـيْلِكُمْ فِيـهَا قَطِينا[١٢]

(١) أيام: معارك غر طوال: مشهورات وعظيمات، يتحدث عن عصيان تغلب للملوك السابقين.
(٢) سيد معشر: ملك قوم، قد توجوه: ألبسوه تاج المُلك: يحمي المحجرين: يحمي المستجرين به.
(٣) عاكفة عليه: حنت أعناقها نحوه وهو مجندل على الأرض، مقلدة أعنتها: مرسلة من أيدينا، صافنة: ساكنة.
(٤) ننفي الموعيدينا: نطرد عنها الأعداء.
(٥) هرت الكلاب: أخرجت صوتا خفيضا من الخوف، القتاد: شجر ذو شوك، والواحدة منها قتادة. التشذيب: نفي الشوك والأغصان الزائدة والليف عن الشجر، ويقصد قلمنا أظافر أعدائنا وردعناهم، يلينا، أي: يقرب منا.
(٦) رحانا: الرحى: طاحونة الحب من قمح وغيره، ويقصد بها الحرب، الطحين ، هو مخرجات الرحى، ويقصد القتل المرير في الأعداء.
(٧) الثِّقال: خرقة أو جلدة تبسط تحت الرحى ليقع عليها الدقيق، اللُّهوة القبضة من الحب تلقى في فم الرحى، وقد ألهيت الرحى ألقيت فيها لُهْوَة، يقصد بقضاعة أهل اليمن؛ لأنَّ قضاعة قبيلة يمنية كبيرة، تفرعت عنها معظم قبائل اليمن، وهو هنا يعرض بالملك عمرو بن هند القتيل، وأصله من اليمن.
(٨) الضغن: الحقد، يخرج الداء الدفينا: يخرج ما مستقر في القلب أحقاد وضغائن.
(٩) معد: معد بن عدنان جد القبائل العدنانية وهم عرب الشمال، حتى يبين: حتى يظهر علانية.
(١٠) التضعضع: التكسّر والتذلل، ضعضعته فتضعضع أي كسرته فانكسر، الونى: الفتور.
(١١) أي لا يسفهن أحد علينا فنسفه عليهم فوق سفههم، أي نجازيهم بسفههم جزاء يُرْبِي عليه.
(١٢) القطين: الخدم. القَيْلُ: الملك دون الملك الأعظم.

بِأيّ مَشِيئَةٍ عَمْرَو بن هِنْدٍ تُطِيعُ بِنَا الوُشَاةَ وَتَزْدَرِينَا[١]
تَهَدَّدنَا وَأَوْعِدْنَا رُوَيْدًا مَتَى كُنّا لأُمّكَ مُقْتَوِينَا[٢]
فإنّ قَنَاتَنَا يا عَمْرُو أَعْيَتْ عَلَى الأَعْدَاءِ قَبْلَكَ أَنْ تَلِينَا[٣]
إِذَا عَضَّ الثِّقَافُ بِهَا اشْمَأَزَّتْ وَوَلَّتْهُ عَشَوْزَنَةً زَبُونَا[٤]
عَشَوْزَنَةً إِذَا انْقَلَبَتْ أَرَنَّتْ تَشُجُّ قَفَا الْمُثَقِّفِ وَالْجَبِينا[٥]
فَهَلْ حُدّثْتَ فِي جُشَمِ بنِ بَكْرٍ بِنَقْصٍ فِي خُطُوبِ الأَوَّلِينَا[٦]
وَرِثْنَا مَجْدَ عَلْقَمَة بنِ سَيْفٍ أَبَاحَ لَنَا حُصُونَ الْمَجْدِ دِينا[٧]
وَرِثْتُ مُهَلْهِلًا وَالْخَيْرَ مِنْهُ زهيرًا نِعْمَ ذُخْرِ الذَّاخِرِينَا[٨]
وَعَتّابًا وَكُلْثُومًا جَمِيعًا بِهِمْ نِلْنَا تُرَاثَ الأَكْرَمِينَا[٩]
وذا البُرَةِ الّذِي حُدّثْتَ عَنْهُ بِهِ نُحْمَى وَنَحْمِي الْمُحْجَرِينَا[١٠]
وَمِنّا قَبْلَهُ السّاعِي كُلَيبٌ فَأَيُّ الْمَجْدِ إلّا قَدْ وَلِينا[١١]
مَتَى نَعْقِدْ قَرِينَتَنَا بِحَبْلٍ تَجُذَّ الْحَبْلَ أَو تَقِصِ القَرِينا[١٢]
وَنُوجَدُ نَحْنُ أَمْنَعَهُمْ ذِمَاراً وَأَوْفَاهُمْ إِذَا عَقَدُوا يَمِينَا[١٣]
وَنَحْنُ الْحَابِسُونَ بِذِي أَرَاطَى تَسَفُّ الْجِلَّةُ الْخُورُ الدَّرِينَا[١٤]

(١) ازدراه وازدرى به: قصر به واحتقره.
(٢) القَتْو: خدمة الملوك.
(٣) القناة: الرمح، وظف بمعنى العزة والقوة عند العرب أي ما ضعفت قوتنا فيما سلف من الزمان
(٤) الثقاف: الحديدة التي يقوم بها الرمح، وقد ثقفته: قومته. العشوزنة: الصلبة الشديدة. الزبون: الدّفع.
(٥) أرنت: صوتت؛ لأنَّها لم تطاوع المثقِّف بل تشج قفاه وجبينه، كذلك عزّتهم لا تضعضع لمن رامها بل وتقهره
(٦) جشم بن بكر: جد تغلب.
(٧) الدين: القهر، ومنه قوله عز وجل: {فَلَوْلا إِنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِين} [الواقعة: ٨٦] أي غير مقهورين.
(٨) المهلهل: جد الشاعر لأمه، وزهير من أجداده.
(٩) كلثوم، وعتاب: آباء الشاعر.
(١٠) ذو البرة: من بني تغلب، سُمّي به لشعر على أنفه يستدير كالحلقة.
(١١) كليب: أول ملك للعرب من تغلب قتله جساس البكري.
(١٢) القرينة التي تقرن إلى غيرها، أو تقارن بها من القرين أي العدو.
(١٣) الذمار: العهد والحلف والذمة.
(١٤) ذو أراطى: موضع معركة، تسف: أي تأكل يابسًا، الْجِلّة: الكبار من الإبل، الخور: الغزار من الإبل والناقة خوراء. الدَّرين: النبت اليابس المحول.

وَنَحْنُ الْحَاكِمُون إِذَا أُطِعْنَا وَنَحْنُ العَازِمُونَ إِذَا عُصِينَا[١]
وَنَحْنُ غَدَاةَ أُوقِدَ في خَزَازَى رَفَدْنَا فَوْقَ رِفْدِ الرَّافِدِينَا[٢]
وَكُنّا الأَيْمَنِينَ إِذَا التَقَيْنَا وَكَانَ الأَيْسَرَيْنِ بَنُو أَبِينَا[٣]
فَصَالُوا صَوْلَةً فيمَنْ يَليهِمْ وَصُلْنَا صَوْلَةً فيمَنْ يَلِينا[٤]
فَآبُوا بالنِّهَابِ وبالسَّبَايَا وَأُبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصَفَّدِينَا[٥]
إِذَا مَا الْمَلْكُ سَامَ النَّاسُ خَسْفًا أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الذُّلَّ فِينَا[٦]
لنا الدُّنيا وَمَنْ أمسى عَليها وَنَبطِشُ حينَ نبطش قادِرينا[٧]
بُغاةٌ ظالمينَ وما ظَلَمنا ولكنَّا سَنبدأُ ظالِمينا[٨]
مَلَأْنَا البَرَّ حَتّى ضَاقَ عَنّا وَمَاءُ البَحْرِ نَمْلَؤهُ سَفِينا
إِذَا بَلَغَ الفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ تَخِرُّ لَهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينا

مناسبة القصيدة:

يُروى أنَّ عمرو بن هند ملك الحيرة قال ذات يوم لندمائه: هل تعلمون أحدًا من العرب تأنف أمُّه من خدمة أمِّي؟ فقالوا: نعم! أمُّ عمرو بن كلثوم. قال: ولِمَ؟ قالوا: لأن أباها مهلهل بن ربيعة، وعمها كليب وائل أعز العرب، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب، وابنها عمرو، وهو سيد قومه. فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره، ويسأله أن يزير أُمَّه أُمَّه، فأقبل عمرو من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة بني تغلب، وأقبلت ليلى بنت مهلهل في ظعن من بني تغلب. وأمر عمرو بن هند

(١) العازمون: الماضون في أمرهم دون النظر في العواقب.
(٢) طلب كليب من أحد قادته المتقدمين وهو السفاح التغلبي أن يشعل ناراً على جبل خزاز إذا أقبلت جيوش مذحج؛ لتراها قبائل ربيعة، وتكون بداية شرارة الحرب بين عرب الشمال وعرب الجنوب الرّفد: الإعانة، والرفد.
(٣) يقول: كنا حماة الميمنة إذا لقينا الأعداء وكان إخواننا حماة الميسرة، يصف غناءهم في حرب نزار واليمن عندما قتل كليب وائل لبيد بن عنق الغساني عامل ملك غسان على تغلب حين لطم أخت كليب وكانت تحته.
(٤) يقول: هجمت بنو بكر على من يليهم من الأعداء، وحملنا على من يلينا.
(٥) النِّهاب: الغنائم، الواحد نهب. الأوب: الرجوع، التصفيد: التقييد
(٦) الخسف: الذل، أبينا: رفضنا.
(٧) نبطش: نقتل بشدة دون رحمة.
(٨) البغي: شدة الظلم.

برواقه، فضرب في ما بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته، فحضروا في وجوه بني تغلب. فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند في رواقه، ودخلت ليلى إلى هند في قبة من جانب الرواق، وهند عمة امرئ القيس بن حجر الشاعر، وكانت أم ليلى بنت مهلهل بنت أخي فاطمة بنت ربيعة التي هي أم امرئ القيس، وبينهما هذا النسب، وقد كان عمرو بن هند أمر أُمَّه أنْ تُنحي الخدم إذا دعا بالطُّرَف، وتستخدم ليلى. فدعا عمرو بمائدة، ثم دعا بالطُّرَف فقالت هند: ناوليني يا ليلى ذلك الطبق. فقالت ليلى: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها. فأعادت عليها، وألحت، فصاحت ليلى: واذُلَّاه! يا لتغلب! فسمعها عمرو بن كلثوم، فثار الدم في وجهه، نظر إليه عمرو بن هند، فعرف الشر في وجهه، فوثب عمرو بن كلثوم إلى سيف لعمرو بن هند معلق بالسرادق ليس هناك سيف غيره، فضرب به رأس عمرو بن هند، ونادى في بني تغلب، فانتهبوا ما في الرواق، وساقوا نجائبه، وساروا نحو الجزيرة [١] .

دواعي قول القصيدة:

أساسه شعور مفعم بالفخر والخيلاء والأنفة بالنصر العظيم على ملك عظيم الشأن والمُلك[٢] من ملوك زمانه، بل أعظم ملوك زمانه ، وأكثرهم شدةً وبطشًا وتجبرًا وكبرًا وقوة .

فعمرو بن كلثوم حقيق بكل هذا الفخر وهذا السؤدد وهذا المجد وأكثر، حيث قتل ملكًا على بساطه بين جنده وخدمه وحشمه في عاصمة ملكه لكلمة لأمِّه سمعها منها من خلف الستور"وآذُلَّاه يا لتغلب".

فقد كانت جرأته غير طبيعية وشجاعته ليس لها نظير حين أقدم على قتل ملك بهذه الصورة النادرة، ولهذا السبب الهين، وأجزم أن مثل هذا الأمر لم يحدث في تاريخ العرب، وربما غير العرب، فحقَّ له أن يصدح بالشعر ويفتخر به! وحقِّ الشعر ما نُظم إلاّ لمثل ذلك! لا كان الشعرُ إنْ لم يكن فيها:

أَلَا هُبّي بصحـنِكِ فاصبحينا ... وَلَا تُبْقِي خُمُورَ الأَنْدَرِيـــنا
مُشَعْشَعَةً كَأَنّ الْحُصَّ فِيـهَا ... إِذَا مَا الْمَاُء خَالَطَهَا سَخِـينَا
تَجُورُ بِذِي اللُّبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ ... إِذَا مَا ذَاقَـــها حَتَّى يَلِيـنَا
تَرَى اللَّحِزَ الشَّحِيحَ إِذَا أُمِرَّتْ ... عَلَيهِ لِمَـالِـــهِ فِيـهَا مُهِينَا

(١) الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢ ١٩٩٧، ج١١/ ٥٤ ، ص٣٦.
(٢) المصدر نفسه، ج١١/ ٤٣ ، ص٢٩.

ألآ هبي يا هند الهنود، يا هند الكبرى، يا أُم الملك، يا أُم الصحن "الطبق" الذي كان سببًا في قتل ابنك الملك الهمام، أهلكتِ ابنَكِ بصحنك المشؤوم، فأنت اليوم لنا قطينا؛ فلتكوني اليوم خادمة لنا، انهضي من النوم اصبحينا بسرعة من خمور معتقة غالية الثمن من خمور الأندرينا؛ انتشاء بهذا النصر الكبير على الملك عمرو بن هند، لم يذكر اسمها ترفعًا وأنفةً وازدراءً لها، أردتِ يا هندُ إذلال العزيزة أُمي ليلى بنت المهلهل لترفع معك الصحون والأطباق، فأهنتكِ وأوجدتكِ بقتل ابنك، وسأذلُّك الان بشعري.

تمحَّل الشراح القدامى وقالوا إنَّ الصحن هو القدح الواسع الضخم[١] بناء على قول عمرو بن كلثوم، وأورده بن منظور بهذا المعنى مستشهدا بشعر عمرو بن كلثوم أيضًا فقط [٢].

والصحن: إناء من أواني الطعام[٣]، وليس من أواني الأشربة، واسع القاعدة وهو الطبق المعروف، إناء قاعدته واسعة قليل العمق: وقالت العرب صحن الدار وصحن المسجد أي الأفنية وساحات المداخل والاستقبال ، ويومئ عمرو بن كلثوم بذلك إلى موضوع الطبق الذي كان سببًا في قتل الملك عمرو بن هند في حادثة الطرف المشهورة، ولم يقصد أن تسقيه بهذا الصحن، فلا تُشرب الخمرة بالصحون، ولكنها تحسى بالكؤوس الرقيقة الدقيقة الناعمة الملونة، صغيرة الحجم، فالخمرة ليست لبناً يُكرع كرعاً ولا ماء يُعبُّ عبَّاً، والشرَّبُ وخمرتُهم أرقَّ من تحتسى بآنية كبيرة وألطف، فجمال الكأس ورسوماتها نصف اللذَّة والمتعة والسكر، فلا يمكن أن يكون عمرو بن كلثوم قليل الخبرة، خشن الطبع، وعر الوسيلة في شرب الخمر! .

ثم بعد ذلك يصف الخمرة إذا ما كُسرت بالماء بأنَّها مشعشة كالورس الأصفر المتوهج، وهذا التوهج والشعشعة لا يظهره قدح عظيم، سميك المادة، وإنَّما تُجلِّيه كؤوس الطِلا الرقيقة الشفافة ذات الأعناق الطويلة. هذا الجمال في مجالس الشرب لا يقدر عليه إلا الأجواد، وأهل الكيف والسخاء والبذل؛ لأنَّ جلب الجمال يحتاج إلى البذل والمال الوفير، لا يقدر عليه البخيل اللحز الشحيح، فهو يتجنب هذه المجالس، أو ينخلع من عقله وطبعه؛ فيهين ماله لها، ثم يندم على ذلك عندما تذهب السكرة وتحضر الفِكرة –كما يقولون.

---

(١) التبريزي، **شرح القصائد العشر**، مصدر سابق، ص٣٨٠

(٢) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (٦٩٠ ه): **لسان العرب**، دار صادر، ط ١، بيروت، مادة صحن.

(٣) **معجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار عمران، ط٣، ج١، ص٥٢٨.

وَإِنّا سَـــوْفَ تُدْرِكُنا الْمَـــنَايَا مُـقَدَّرَةً لَـــــنَا ومُـقَدَّرِيـــــنا

الكرم والشجاعة ترتبطان بعلاقة طردية مع الخوف من الموت، كلما علا الخوف من شبح الموت في امرئ انحطَّ نوط الشجاعة والكرم عنده، والعكس صحيح، فمن أسباب شجاعة عمرو بن كلثوم التي لا حد لها هو إقراره بأنَّ المنايا مقدّرة له وهو مقدرٌ لها، فلا الفَرَقُ منها يُبعدها ولا الإقدام يدنيها.

أَبَا هِـنْدٍ فَـــلَا تَعْـجَلْ عَلَـيْنَا وأَنْـظِرْنَـــا نُخَـــبِّرْكَ الْيَقِيـــنَا
بِأَنَّا نُـــوردُ الـرَّايَاتِ بِيـــضًا وَنُصْدِرُهُنّ حُـمْرًا قَـــدْ رَوِيـنَا
وأيَّامٍ لَـنَا غُـــرٍّ طِـــوَالٍ عَصَيْنَا الْمَلْكَ فِيهَا أَنْ نَدِيـنَا
وَسَيّدِ مَعْـشَـــرٍ قَـدْ تَوَّجُـوه بِتَاجِ الْمُلْكِ يَحْمِي الْمُحْجَرِيـنـــا
تَرَكْنَا الْخَـيلَ عَاكِـفَةً عَلَيهِ مُقَلّدَةً أَعِنّـــتَهَا صُـفُونَـــــا
وَأَنْزَلْنَا الْبُيُوتَ بِذِي طُلُـوحٍ إلى الشَّـــامَاتِ نَنْفِي الْمُوعِدِينَا
وَقَد هَرَّت كِـلابُ الْحَيِّ مِنّا وَشذَّبنـــا قَـــتادَةَ مَن يَلِينـــا
مَتى نَنقُل إِلـــى قَـومٍ رَحَانا يَكُونوا في اللِّـقاءِ لَهـــا طَحينا
يَكُونُ ثِقَالُهَـــا شَرْقِيَّ نَـــجْدٍ وَلُهْوَتُهَـــا قُضَـــاعَةَ أَجْمَعِينَـــا
وإنَّ الضِّغْنَ بَعْدَ الضِّغْنِ يَبْدُو عَلَيْكَ وَيُخْـــرِجُ الـــدَّاءَ الدَّفِينَا

يخاطب عمرو بن كلثوم عمرو بن هند، ويريد أن يُسمع الأموات والأحياء منهم، وكنَّاه بأبي هند؛ فهو ابن هند الكبرى وأبو ابنته هند الصغرى أيضًا، فالعرب لا يعرفون من أسماء نساء المناذرة إلاَّ اسمًا واحدًا هو هند، فيعرفون هند الكبرى وهي عمة امرئ القيس الكندي بنت حجر آكل المرار، وهند الوسطى وهند الصغرى من بناتهم الأخريات؛ لأنَّ المناذرة لا يكشفون عن أسماء بناتهم الحقيقية، فلذلك أي واحد منهم تستطيع أن تطلق عليه أبا هند، فهذه المناداة موجهة إلى الأحياء من المناذرة قبل الأموات محذرا لهم؛ لكي لا يتوهموا مرة أخرى أنَّهم قادرون على إذلالهم وإهانة نسائهم، وأن يقدِّروا الأمور المتعلقة بهم خير تقدير، فلا يخطئون بحقهم ويتجاهلون قوتهم فيندموا، كما ندمت بكر قبلهم، فأذاقوها مرارة الذل واللوعة والتشريد ونقص الأنفس والأموال والضياع في بلاد الله لمدة أربعين عامًا.

فيقول: إذا كنت تجهلنا، وإنَّك لجاهلٌ حقًا، يبدو ذلك من حمق تصرفاتك معنا، إنَّك قد جانبت الحقَّ في محاولتك إذلالنا، ويؤكد صريم التغلبي أنْ عمرو بن هند لم يكن موفقاً في ذلك، بقوله:

لَعَمرُكَ ما عمرُو بنُ هندٍ وَقَد دَعَـا لِتَخـــدِمَ ليلى أُمَّـــه بِمُوفَّـــقِ
فَقام ابنُ كلثومٍ إلى السيفِ مُصلِتا فأمسَكَ من نَدمـانه بالمُخنَّـــقِ
وَجَلَّلهُ عمرٌو على الرأس ضـــربةً بذي شُطبٍ صَافي الحَديدةِ رونقِ[1]

سوف أُخبركم الخبر اليقين، كما أخبرت قبلكم بكرًا في حضرتكم يوم التقاضي، أنسيتم ذلك! نحن بنو تغلب راياتنا بيضاء كناية عن الشرف وخلونا من الدنس، نَرِدُ بها ساحات الوغى، فلا يبقى لونها أبيضَ، وإنَّما نروِّيها من دماء الأعداء فتصبح حمراء فاقع لونها تغمُّ الناظرين، فلذلك هم مضطرون إلى تجديد الرايات في كل معركة، هذا دأبهم بشكل عام.

ويذكِّرهم بعد ذلك بأيام خاصة، أولها: يوم عصوا أن يرضخوا للقيل زهير بن جناب الكلبي الذي عيَّنه إبرهة بن صبَّاح قيلًا على بكر وتغلب، فعصوه ومنعوه الأتاوة، وحاولوا قتله غيلة.

ويذكِّر بملك ثانٍ عصبوه بتاج الملك وهو شرحيل بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار، ويكون خال عمرو بن هند الذي ملّك على بكر وتغلب، عندما ملّك الحارث بن عمرو ملك الحيرة أبناءه الخمسة على قبائل مضر وربيعة، وقتله عصيم بن مالك الجشمي التغلبي بطعنةٍ وألقاه عن فرسه، فوقفت عليه الخيل صفونا، ونزل إليه فاحتزَّ رأسه وأخذه [2].

وكان ذلك من أسباب حقد الملك عمرو بن هند على التغلبيين، وما يكنُّه لهم من ضغائن وحسد لانتصارهم على قضاعة اليمانية في تلك الأيام السالفة، مما حدا به للحكم لصالح البكريين على التغلبيين في يوم التقاضي، ففي هذا اليوم بدا الضغن عليه واضحًا وأخرج من صدره الداء الدفين عليهم منذ القدم.

وَرِثْنَا الْمَجْـــدَ قَـــــدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ نُـطَاعِـنُ دُونَـــهُ حَتّى يَبِيـنَا
أَلَا لَا يَعْـلَمُ الأَقْـــــوَامُ أَنَّا تَضَعْضَـعْنَا وَأَنَّـــا قَـــدْ وَنِيـنا

ترتفع عنده وتيرة الفخر فيعلن أنَّ تغلب ورثة المجد الغالب، وهذا الأمر ليس خافيًا على أحد، فهذه قبائل مَعَدٍّ تشهد على ذلك، وسوف نحافظ عليه ما حيينا؛ كي لا يقول الناس يومًا أنَّا ضعفنا في يوم من الأيام أو هُنَّا.

(١) الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، ج١١/٥٥ ، ص٣٧ .
(٢) أبو الفضل، إبراهيم، أيام العرب في الجاهلية، ص٤٨.

أَلَا لَا يَجْـهَلَنْ أَحَـــــــدٌ عَلَيْـنَا فَنَـجْـــهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا
بِأيّ مَشِيئَةٍ عَمْـرَو بن هِنْدٍ نَكُونُ لِقَـيْلِكُمْ فِيـهَا قَطِينا
بِـأيّ مَشِيئَةٍ عَمْـرَو بـــــن هِنْدٍ تُطِيـعُ بِنَـــا الوُشَـــاةَ وَتَزْدَرِينَا
تَهَـدَّدنَا وَأَوْعِـــدْنَا رُوَيْـــــــدًا مَتَى كُـــنّا لأُمّـكَ مُقْتَوِيـــنَا

إنَّ تغلب أهل عزَّة وأنفة ومجد رفيع عالٍ، فيحذِّرُ الناس أنْ لا يتجاهلون مقامهم و وزنهم، ولا يستصغرون أمرهم؛ يقول: لأنَّنا لن نسكت، سوف نجازي كلاً بفعله وأشدَ، ويكون الجزاء من صنف الجهل، ثم يُلاحي عمرو بن هند على تجروئه عليهم بمحاولة إذلال أُمِّه ليلى بنت المهلهل بخدمة أُمِّه هند الكبرى مستهجنًا تصرفه هذا، وتصرف أُمِّه، بأي حقٍّ تطلب مثل ذلك منَّا، ولم يُسجل سابقًا عن تغلب أنَّها رضخت لحاكم، مُذكِّراً بعصيانهم القيل زهير بن جناب الذي وضعه عليهم إبرهة بن صبَّاح ملك اليمن، وامتنعوا عد دفع الأتاوة له، ثم يستغرب تصرفه يوم استمع للواشي الحارث بن حلزة ـ كما يراه ـ في مجلس التقاضي فيحكم لبكر وهي المعتدية ويسفِّه تغلبًا ويزدريها، ثم يطلب منه أنْ يخفِّف من وعيده بإذلالهم أمام مجلسه، وأنَّه سوف يُريهم أنْ لا امرأة في العرب تُحجم عن خدمة أُمَّه هند، حتى لو كانت ليلى بنتَ المهلهل، ويسأله سؤالا إنكاريًا متى كنَّا يومًا خدمًا لأُمِّك حتى تخدمها أُمِّي !.

فإنّ قَـــنَاتَنَا يـــــــا عَمْرُو أَعْيَتْ عَلَى الأَعْـــــدَاءِ قَـبْلَكَ أَنْ تَلِيـنَا
إِذَا عَضَّ الثِّقَافُ بِهَـــــــا اشْمَأَزَّتْ وَوَلَّـــتْهُ عَشَـــوْزَنَةً زَبُـــــونَا
عَشَـــــــوْزَنَةً إِذَا انْقَلَـــبَتْ أَرَنَّتْ تَشُـــــجُّ قَفَـــا الْمُثَـقِّفِ وَالْجَبِيـنا

ما بال عمرو بن هند يتجاهل قوة تغلب، ألم يعلم بأنَّ قوتهم لم تضعف، وقناتهم لا تلين! هل كذب عليك أحد يا عمرو وذَكَرَ عيبًا لنا في الأولين، نحن ورثة المجد السامق ورثناه كابرًا عن كابر من أجدادنا العظام، ويعدِّدهم:

فَهَلْ حُدِّثْتَ فِي جُشَـــــمِ بنِ بَكْرٍ بِنَقْصٍ فِي خُطُـــوبِ الأَوَّلِيـــــنَا
وَرِثْنَا مَجْـــدَ عَلْقَـمَة بنِ سَيْفٍ أَبَاحَ لَنَـــا حُصُـونَ الْمَجْدِ دِينا
وَرِثْتُ مُهَلْـــــــهِلًا وَالْخَـيْرَ مِنْهُ زهيراً نِعْـــمَ ذُخْـــرِ الذَّاخِرِينَا
وَعَـــتّابًا وَكُلْثُومًـــــا جَميـــــــعًا بِهِـمْ نِلْـــــنَا تُـــرَاثَ الأَكْرَمِينَا
وذا البُـــرَةِ الّذِي حُدِّثْتَ عَنْهُ بِـــهِ نُحْـمَى وَنَحْمِي الْمُحْجَرِينَا
وَمِنّـــا قَبْـــــلَهُ السّـــاعِي كُلَيبٌ فَأَيُّ الْمَـــــجْدِ إلّا قَـــــدْ وَلِينا

هذا المجد الموروث يوجب علينا أن نحافظ عليه؛ لأنَّه تراث الأكرمين، لذلك لن نرضخ لأحد، ولا أحد يستطيع السيطرة علينا بالقوة:

مَتَى تُعْقِدْ قَرِينَتَنِا بِحَبْلٍ نَجُذَّ الْحَبْلَ أَو نُقِصِ القَرِينا
وَنُوجَدُ نَحْنُ أَمْنَعَهُمْ ذِمَاراً وَأَوْفَاهُمْ إِذَا عَقَدُوا يَمِينَا
وَنَحْنُ الْحَابِسُونَ بِذِي أَرَاطَى تَسَفُّ الْجِلَّةُ الْخُورُ الدَّرِينَا
وَنَحْنُ الْحَاكِمُون إِذَا أُطِعْنَا وَنَحْنُ العَازِمُونَ إِذَا عُصِينَا

لا أحد يستطيع أنْ يقتادنا عسفاً؛ لأنَّنا أمنع الناس ذمارًا، وأوفاهم عهدًا، وأعظم الناس حِملاً في الحروب، نحن الصابرون على التعب، والقادرون على تحمل المشاق، ومن تتوفر فيهم هذه الصفات يكونون حكام الناس وسادتهم في السرّاء والضرَّاء، لذلك نحن المعوَّل علينا في قيادة الحروب، ندير دفتها ونمسك بزمامها، كما فعلنا في حرب خزازى بيننا وبينكم يا أهل اليمن:

وَنَحْنُ غَدَاةَ أُوقِدَ في خَزَازَى رَفَدْنَا فَوْقَ رِفْدِ الرَّافِدِينَا
وَكُنَّا الأَيْمَنِينَ إِذَا التَقَيْنَا وَكَانَ الأَيْسَرَيْنِ بَنُو أَبِينَا
فَصَالُوا صَوْلَةً فيمَنْ يَليهِمْ وَصُلْنَا صَوْلَةً فيمَنْ يَلِينا
فَآبُوا بالنِّهَابِ وبالسَّبَايَا وَأُبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصَفَّدِينَا

يتحدث عن معركة خزاز الشهيرة التي انتصرت بها قبائل ربيعة ومن بينها قبيلتا بكر وتغلب على أهل اليمن بقيادة كليب بن ربيعة التغلبي، وتُوِّجَ على إثرها ملكًا عليهم، ويشيد هنا بشجاعة بكر وقوتها وصولاتها في هذا اليوم، ولكنهم لم يصلوا إلى شجاعتهم وفروسيتهم وإقدامهم وتجرؤهم على الملوك، فكانت تغلب على الميمنة، والمعوَّل عليها في الحرب هي دفة الميمنة، وكانت بكر بن وائل أبناء أبيهم وائل على الميسرة، وكان سَلَبُ بكر الأموال والنساء، وسَلَبُ تغلب الملوك المكبلين بالأغلال والقيود، لذلك لا يرضخون للملوك ولا يعطونهم الطاعة، وقد أسروهم وذلُّوهم في الحروب، فيأبون أن يسمهم أي ملك بالخسف والذُّل، ولا يقرون بالظلم والهوان منهم ويقصد هنا ملوك اليمن، الذين كانوا يُعَيِّنُونَ أَقْيَالًا عليهم، أو يتملكونهم كالمناذرة وكندة والغساسنة:

إِذَا مَا الْمَلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفًا أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الذُّلَّ فِينَا

لذلك يحقُّ لهم الفخار وأن يعتلوا سنام المجد والعلياء، وهم حقيقون بالعزَّة القعساء والسؤدد:

لنـــــــــا الدُّنـيا وَمَنْ أمسى عَليها وَنَبطِـــــــشُ حينَ نبطـش قادِرينا
بُغاةٌ ظالمـينَ ومـــــــا ظَلَـمنا ولكـــنَّا سَنبـــــــدأُ ظالِميـــنا
مَلَأنَا البَرَّ حَتّى ضَـاقَ عَـــــــنّا وَمَـــاءُ البَـحْرِ نَمْلَـــــــؤهُ سَفِينا
إذَا بَلَـــــــغَ الفِـــطَامَ لَنَا صَبِيٌّ تَخِرُّ لَـــــــهُ الْجَبَابِرُ سَـــــاجِدِينا

هذه سجدة المجد والأنفة والعزَّة لا يستحقها إلاَّ أهلها، ولا يعرفها إلاَّ من عاش في زمانهم، والعدد العظيم مقدرةٌ وغلبةُ والقلةُ ذلٌ وانكسارٌ، فيروي محمد بن السائب الكلبي عن أبيه أنَّه سمع بعض أصحابه يقولون: لو أبطأ الإسلام قليلا لأكلت بنو تغلب الناس(١)، والظلم سبيل الكبار إلى المنعة والقوة والكبرياء، ومن لايظلم الناسَ يُظلم.

الخلاصـــة:

لا أعرف أُمَّة أنتجت من الأدب الرفيع سموطًا ومذهبات وعلائق نفيسة في جاهليتها مثل ما أنتجت أُمَّة العرب، ومن لديه مثل هذا الإرث العظيم يجب أن لا يهون ولا يُستخزي، هذا هو الأدب الذي إذا قرأته ملأك شجاعة ورجولة وعزَّة.

جَلَّت قراءةُ كلِّ قصيدة على حِدَة بعد تعليقها بمناسبتها ودواعي قولها وحدةً موضوعيةً في كلٍّ منهما ظاهرة للقارئ العادي بعد أنْ كانت مفتقرة في القصيدة الأم، واستوت في كلِّ واحدةٍ منهما ميزتها الفنية، وتمحورت عاطفة الشاعر ومعانيه في كل منهما حول حادث قولها، وكانت قبل ذلك أمشاجًا من عاطفة مضطربة منقسمة على حادثتين مختلفتين، متباعدتين زمنيًا، أدت على تناقض في المعاني، واستقر بَعْدُ النَفَسُ الشعري للشاعر عند كل عاطفة أثارها ضرب واحد من الشعور، رمض نفس الشاعر فاستدر من القول حول دواعيه الحقيقية، وشذَّبتُ قتادها بإسقاط الأبيات المشكوك فيها، التي اختلف عليها الرواة في رواياتها المختلفة والتي لا تضيف معنىً مُستجادًا ذات صلة وقيمة في موقعها من القصيدتين.

(١) ابن الأنباري، **شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات**، مصدر سابق، ص٣٦٩.

هذا وقد أثبتُّ المعاني المعجمية للألفاظ لكل بيت في نصِّ كلٍّ واحدة من القصيدتين، لأنَّه لا غنى عن المعنى الأولي، الذي يدلنا بدوره على المعاني الثواني التي قصدها الشاعر، يجلِّيها المنهج العقلي المرتبط بمقام النَّصِّ أولاَ وحُزم المعاني ثانياً، وتؤكدها مستوى قوة العاطفة، ويقظة الشعور في كل واحدة من القصيدتين، فقد ظهرت قوة العاطفة في قصيدة الصحن أعلى منها في قصيدة التقاضي التي تتعلق بالقبيلة وماضيها، أمَّا قصيدة الصحن فتتعلق به شخصيًا وهذا أمر طبيعي؛ فدواعي قوله قصيدته الثانية كانت أبلغ أثرًا في نفسه، فهي متعالقة أولًا بحادث عظيم ومثير جدًا وهو قتله ملكًا على بساطه وبين جنده، وثانيًا بخصوصية أثيرة في نفسه وهي تلبية صيحة أُمِّه ليلى بنت المهلهل "وآ ذلَّاه واتغلباه"، لذلك اعتلى فخره فيها سنام الفخار والعليا إلى حدٍ لم يبلغ النجم عُلاه، وبقي متيقظاً شعوريًا حتى وصلت سورة نشوته إلى ذروتها فقفل قصيدته ببيت تتقطع دونه الأعناق، لا يصل إليه متطول، وتنقطع بذراه آيات الفخر والعلياء:

إذَا بَلَـــــغَ الفِـــطَامَ لَنَا صَبِيٌ تَـخِـــــــــــرُّ لَهُ الْجَـبَابِرُ سَاجِديـــنا

المراجع

إبراهيم، أبو الفضل، والبجاوي، علي محمد: أيام العرب في الجاهلية، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٥م.

إسماعيل، عز الدين: الشعر العربي المعاصر وقضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٩٨١م.

ابن عربي، أبو بكر محيي الدين بن محمد الطائي (٥٠٥ هـ): الفتوحات المكية، دار صادر، بيروت.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (٦٩٠ هـ): لسان العرب، دار صادر، ط١، بيروت.

الأصفهاني، أبو الفرج، الأغـــــاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢ ١٩٩٧.

الآمدي، الحسن بن بشر بن يحيى، المؤتلف والمختلف: دار الكتب العلمية– بيروت، ١٩٨٠م .

الأنباري، محمد بن القاسم، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة.

بارت، رولان: لـــذَّة النَّص، ترجمة: د. منذر عياش، دار لوسي، باريس، ط ١٩٩٢

التبريزي، يحيى بن علي بن محمد، شرح القصائد العشر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة.

الجراح، محمد بن داود، من اسمه عمرو من الشعراء في الجاهلية والإسلام: تحقيق د. محسن غياض عجيل و د. مصطفى عبد اللطيف، دار الشؤون الثقافية، بغداد،١٩٩٩.

الجوزية، ابن قيم: أعلام الموقعين عن رب العالمين، المطبعة المنيرية، القاهرة.

الحوفي، أحمد: الغزل في العصر الجاهلي، دار القلم، بيروت، ١٩٦١.

الشاطبي، أبو اسحاق: الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: محمد عبد الله دراز، طبعة المكتبة التجارية، القاهرة.

العاكوب، علي عيسى: العاطفة والإبداع الشعري، دار الفكر المعاصر ودار الفكر، ط١، بيروت ودمشق، ٢٠٠٢م.

عسيلان، عبد الله بن عبد الرحيم، معجم شعراء الحماسة، دار المريخ– الرياض، ١٩٨٢م.

القيرواني، ابن رشيق (٤٥٦ هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٩٨١م